وردة "باراسيلس"

بقلم جورج لويس بورجيس
ترجمة : رنا إدريس

(هذا نص مهم لسببين : فهو ، من ناحية ، من احدث ما كتبه ، او بالاصح ما املاه جورج لويس بورجيس . انه ضمن مجموعة مطبوعة باللغة الاصلية ، في مدريد ، العام المنصرم . وهذه المجموعة ، من ناحية اخرى ، وعنوانها « وردي وازرق » ، تدشن بنجاح كبير سلسلة جديدة من الادب الاجنبي .

ان اقصوصة بورجيس تقرن ، في افضل جوانب قريحة المؤلف ، وحيه الباطني بفن النحت عنده . لاحظوا كيف ان الخيماوي باراسيلس ، وهو مجرد العنصر الخامس (١) المنسي قليلا اليوم ، يحيا تحت ريشة بورجيس ، كما تحيا الوردة التي يطلب تلميذ ساذج اكثر مما ينبغي او ساذج دون الكفاية ـ يطلب من المعلم، ان يبعثها من رمادها .

لاحظوا كيف ان القصة ، من خلال شفافيتها ، تقودنا بمكر في لولب هذا التامل المعقد حول المعرفة والايمان ، هذا التامل الذي ما برح بورجيس يتابعه ، بلا كلل) .

طلب باراسيلس ، داخل محترفه الذي كان يحتوي على غرفتي القبو ، طلب من ربه ، من ربه الغامض ، من أي رب كان ، أن يرسل له تلميذا . وكانت نار خفيفة ، داخل الموقد ، تعكس ظلالا غير منتظمة .

أن ينهض لكي يشعل المصباح الحديدي ، كان ذلك يقتضيه جهدا مفرطا . وقد نسي باراسيلس صلاته في غمرة غفلته التي سببّها التعب .

كان الليل قد محا الاتنور والانابيق المغبرة عندما دقّ الباب . وقد نهض ، نصف غاف ، وصعد الدرج القصير اللولبي ، ثم شق أحد المصراعين . ودخل مجهول . كان التعب الشديد يظهر عليه أيضا . دلّه باراسيلس على مقعد ، فجلس الآخر وانتظر . في بادىء الامر ، لم يتبادلا أية كلمة . ثم كان المعلم أول من تكلم .

فقال بلهجة لا ينقصها التفخيم :

ـ اني أذكر وجوه الغرب ووجوه الشرق . لا أذكر وجهك أنت . من أنت وماذا تريد مني ؟

فأجاب الآخر :

ـ ليس لاسمي أية أهمية . لقد مشيت ثلاثة أيام وثلاث ليال لكي آتي الى هنا . أريد أن أكون تلميذك . لقد أتيتك بكل ما أملك .

وأخرج حقيبة وقلبها ، بيده اليمنى ، على الطاولة. فزلق منها سيل من القطع الذهبية . ولكي يشعل باراسيلس المصباح ، كان لا بد من أن يدير له ظهره . وعندما التفت ، لاحظ ، في يده اليسرى ، وردة . وأقلقته الوردة . انحنى ومسح طرفها بأصابعه قائلا :

---

(١) آي الاثير عند القدماء (هامش المترجمة) .

ـ انك تحسبني قادرا على اعداد الحجر الذي يحول العناصر الى ذهب . ولكني لست أبحث عن الذهب . واذا كان الذهب يهمك ، فلن تكون أبدا تلميذي .

أجاب الآخر : ـ لا يهمني الذهب . ان تلك القطع المالية ليست سوى برهان على رغبتي في المعرفة . أريد أن تعلمني حجر الفلاسفة . أريد أن أرافقك في الطريق الذي يؤدي الى « الحجر » .

قال باراسيلس ببطء :

ـ ان الطريق هو الحجر . فالحجر هو نقطة الانطلاق . اذا لم تفهم ذلك ، فانك لم تبدأ بعد بالفهم . لان الهدف يكمن في كل خطوة من خطواتك .

نظر اليه الآخر بحذر وقال بصوت واضح :

ـ ولكن ، هل هناك هدف ؟

أخذ باراسيلس يضحك :

ـ ان المشتعين عليّ ، الذين هم على قدر واحد من الكثرة والغباء ، يؤكدون العكس ويتهمونني بأني دجال . انني لا أعطيهم الحق ، الا انه ليس من المستحيل أن يكون ذلك وهما . ان ما أعلمه ، هو ان الطريق « موجود » .

ساد صمت . ثم قال الآخر :

ـ أنا مستعد لان أسلكه معك ، حتى ولو كان علينا أن نسافر طويلا . دعني أجتاز الصحراء . دعني ألمح الارض الموعودة حتى ولو من بعيد ، حتى ولو كانت الكواكب تحول دون الوصول اليها . ولكن قبل أن أباشر هذه الرحلة ، أريد برهانا .

قال باراسيلس بقلق :

ـ « متى ؟ » .

أجاب التلميذ ، وهو يظهر فجأة عزما مباغتا :

ـ على الفور .

كانا قد بدآ الحديث باللغة اللاتينية ، أما الآن فكانا يتكلمان بالالمانية .

رفع الفتى الوردة في الهواء وقال :

ـ يؤكدون انك تستطيع أن تحرق وردة وتحييها من جديد من رمادها بفضل فنك وصناعتك . دعني اذن أكون شاهد هذه المعجزة . هذا ما أطلبه منك . وبعد ذلك سأعطيك حياتي .

قال المعلم : ـ انك ساذج جدا . ولست أدري ما أصنع بالسذاجة . ان ما أطلبه ، هو الايمان .

أصرّ الآخر : ـ بل لاني لست ساذجا ، فاني أريد أن أرى بعينيّ انعدام هذه الوردة وانبعاثها .

كان باراسيلس قد تناولها ، وكان يداعبها فيما هو يتكلم :

ـ انك لساذج . هل تقول اني قادر على اتلافها ؟

قال التلميذ : ليس بقدرة أحد أن يتلفها .

ـ أنت مخطىء . هل تعتقد ان المرء يستطيع ، صدفة ، أن يدفع بشيء الى العدم ؟ هل تعتقد ان آدم الاول استطاع ، في الجنة ، أن يتلف زهرة واحدة ، قشة عشب واحدة ؟

قال الفتى بعناد :

ـ نحن لسنا في الجنة . هنا ، تحت القمر ، كل شيء فانٍ .

كان باراسيلس قد نهض :

ـ في أي مكان آخر نحن اذن ؟ هل تعتقد ان الرب يستطيع أن يخلق مكانا ليس هو الجنة ؟ هل تعتقد ان السقوط هو شيء آخر غير جهلنا حقا اننا في الجنة ؟

قال التلميذ بتحدّ :

ـ من الممكن أن تحترق الوردة .

أجاب باراسيلس :

ـ ما تزال بقية من نار في الموقد . اذا قذفت بالوردة في الجمر ، فستعتقد ان اللهب سيهلكها وان الرماد هو الحقيقي . اني أقول لك ان الوردة أزلية ، وان مظهرها فقط هو الذي يمكنه أن يتغير . سوف تكفيني كلمة واحدة لكي تستطيع أن تراها من جديد .

قال التلميذ بتعجب :

ـ كلمة واحدة ؟ ان الاتنور قد انطفأ ، والانابيق مغطاة بالغبار . ماذا ستفعل لكي تولد من جديد ؟

نظر باراسيلس اليه بحزن وردد :

ـ ان الاتنور منطفىء والانابيق مغطاة بالغبار . انني ، طيلة النهار ، أستخدم وسائل أخرى .

قال الآخر بخبث وتواضع :

ـ لا أجرؤ أن أسأل ما هي تلك الوسائل ؟

ـ انني أتكلم عن الوسيلة التي استخدمها الرب لخلق السماء والارض والتي تخفيها عنا الخطيئة الاصلية . اني أتحدث عن الكلمة التي تعلمها القبلانية (٢) .

قال التلميذ ببرودة :

ـ اني أطلب منك بكل بساطة أن تريني اختفاء الوردة وظهورها . سواء لديّ أن تلجأ الى الكلمة أو الى الانابيق .

فكر باراسيلس وقال في نهاية الامر :

ـ انني اذا فعلت ذلك ، فستقول ان الامر يتعلق بمظهر يفرضه سحر عينيك . ان الاعجوبة لا تعطيك الايمان الذي تبحث عنه . فاترك اذن الوردة وشأنها .

نظر الشاب اليه ، وهو ما يزال شاكا وحذرا .

---

(٢) تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقليد كما كان القدماء يفعلون (هـ.م) .

رفع المعلم صوته قائلا له :

ـ من تراك تكون لكي تدخل ، على هـذا النحو ، مسكن معلم وتطلب منه أعجوبة ؟ ماذا فعلت لكي تستحق مثل هذه الهدية ؟

أجاب الآخر وهو يرتجف :

ـ أعلم جيدا اني لم أفعل شيئا . أنا أطلب منك ، باسم كل تلك السنوات التي سأقضيها دارسا في ظلك ، أن تدعني أرى الرماد ثم الوردة . لـن أطلب منك شيئا آخر . سأصدق حكم عينيّ .

وتناول بعنف الوردة القرمزية التي كان باراسيلس قد تركها على المكتبـــة فرماها في اللهب . تغير لون الوردة ولم يبق منها بعد قليل الا بعض رمـــاد . انتظر الآخر الكلمات والمعجزة ، أثناء وقت لا محدود .

بقي باراسيلس عـــلى غاية البرودة . ثم قـــال ببساطة عجيبة :

ان جميع الاطباء وجميع صيادلة « بال » يؤكدون انني ملفق . ربما كانوا على حق . هنا يرتاح الرمـــاد الذي كان وردة ولن يكونها بعد أبدا .

أحسّ الفتى بالخجل . كـان باراسيلس مشعوذا أو مجرد متخيل . أما هو الدخيل ، فكان قد فتح بابه وكان يجبره الآن على الاعتراف بأن قدراته السحريـــة المشهورة لم تكن سوى صيغ جوفاء .

ركع وقال :

ـ لقد ارتكبت ذنبا لا يغتفر . أعوزني الايمـــان الذي كان المولى يطلبه من المؤمنين . دعني أرى الرماد مرة أخرى . سأعود من جـــديد عندما أكون أقوى ، عندئذ سأكون تلميذك وفي آخر الطريق سأرى الوردة .

كان يتكلم بشغف صادق ، ولكن هذا الشغف لم يكن سوى شفقة بالنسبة للمعلم العجـــوز ، المحترم والمعتدى عليه والبارز بهذا المقدار ومن ثم الفارغ الـى هذا الحد . من يكـون هو ، جوهانس كريشباخ ، لكي يكتشف ، بيد مدنســـة ، انه لم يكـــن يختبىء وراء القناع أحد ؟

أن يترك قطع الذهب ، كان ذلك يكـون صدقة . واذن ، فقد أخذها وهو يهمّ بالخروج .

رافقه باراسيلس حتى أسفل السلّم ، وقال لـه انه سوف يكون دائما على الرحب والسعة . كان كلاهما يعلم انهما لن يلتقيا بعد أبدا .

بقي باراسيلس وحده . وقبل أن يطفىء المصباح ويجلس على المقعد البالي ، قلب قبضة الرماد الصغيرة في يده المقعّرة وقال كلمة بصـــوت خافت ، فانبثقت الوردة من جديد .

(عن جريدة « لوموند » الفرنسية)

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١
بيـروت ـ لبنـان ـ تلفـون ٣٤٤٩٩٨

يسرها أن تقدم

الموسوعتيـن الكبيرتيـن

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصـوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الامـوي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته، شعره، عرض مشوق لافكار الشاعر وأغراضه ومقاصـده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة مـن القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر أجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضـي المعمارية في ٢٠٠ لوحة أكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، أصدرتهـــا مكتبة خيـــاط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هديـة عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال أعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي.

تحفة رائعـــة تزين مكتبـة بيتك أو مكتبك ، وتصور أدق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفـون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، أو مـن فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33